طلال العكشة

طلال سابا العكشة
جمعية تقنيات التراث في الأردن
t.akasheh@gmail.com

الشاعر النبطي الكركي
عبدالله سالم العكشة
(1880 – 1956)

لم تكن سنوات طفولة عبد الله العكشة وصباه مختلفة عن سنوات أقرانه آنذاك، بل إنهم عاشوا جميعهم حياة بسيطة ذاقوا خلالها ضنك العيش، واكتنفت الحاجة والعوز أيامهم. فالحياة في ظلّ الحكم العثماني لم تكن سهلة أو رغيدة، خاصّة وأن الحكّام كانوا قد فرضوا على عامّة الناس الالتزام بتأدية ما يقارب العشرين ضريبة وتحمّل أعبائها (القسوس الهلسا والشوارب 2006).

إلّا أن هذه الظروف خلقت لبطل قصّتنا شخصيّة فذّة تستوقف انتباهنا. فعلى الرغم من أنه لم يتبوّأ مناصب عُليا، ولم يحظَ بنفوذ كبير يمكّنه من ترك لمساته على أحداث التاريخ، إلّا أن تفاعله مع هذه الأحداث ورفضه الصارم لشتّى أنواع الظلم أكسبه كل احترامٍ وإعجابٍ، وذلك إضافة إلى ما عُرِف عنه من حكمة وسداد في الرأي.

توفّي عبد الله وأنا في التاسعة من العمر، فعرفته شيخًا وقورًا تملأُ فؤاده مخافة الله وتقوى لا تعرف الكلل في التعبّد وممارسة شعائر الدين، لدرجة أنه كان يتحدّى أوامر منع التجول الذي فُرِض في عمان في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين، وكان جنود البادية المكلّفون حينها بمتابعة تنفيذ المنع، لا يعترضون طريقه أثناء توجُّهه إلى الكنيسة للصلاة، فقد كان يصرّ على متابعة طريقه دون الالتفات إلى مساءلاتهم الملحّة. كما كان صوته جهوريًّا يثير الرعب في القلوب الصغيرة، عندما كان يصرخ "بَسْ يا عيال" كلّما علا صخبنا عن حدّه أثناء اللعب في الممر الضيّق داخل منزل ابنه الدكتور فريد العكشة الكائن في شارع المحطّة.

على الرغم من فوات أعوام كثيرة على وفاة الشيخ الجليل، فقد أثارت اهتمامي القصص الكثيرة التي سمعتها عنه وعن كونه شاعرًا نبطيًا فذًّا، ممّا حدا بي إلى السؤال والتقصّي خاصة من ابنه الدكتور فريد، وقد شارف على التسعين من عمره حينذاك، فدفعه فضولي إلى كتابة عدّة صفحات عن حياة والده. هذا فضلًا عن كتاب صغير؛ بل كُتيّب؛ نشره تحت عنوان "عرس البويضة" (والبويضة اسم يُطلق على الكرك)، ضمّ بعض الأشعار التي بقيت من إرث والده عبد الله. والواقع، وبحسب الدكتور فريد، فإن والده لم يكن مقلًا ولكنه لجأ إلى تمزيق الكثير من أوراق شعره قبل وفاته بفترة وجيزة؛ وفي اعتقادي أنه لجأ إلى ذلك رغبة منه في عدم ترك أشعار الاعتراض القاسي الذي كان يوجّهه إلى أصحاب السلطة على مدى السنين.

ومما زاد من فضولي، إطّلاعي على مذكّرات المرحوم عودة سليمان القسوس، والتي جمعها حفيده الدكتور نايف جورج القسوس وغسان سلامة

1. الشيخ عبدالله العكشة مع بعض رجالات الكرك اللاتين حوالي عام 1896.

2. الشيخ عبد الله سالم العكشة.

الشوارب، ومذكّرات المرحوم يوسف سلمان القسوس، فقد ورد ضمن هذه المذكّرات اسم عبد الله العكشة مرّات عدّة، وفي مراحل مختلفة من السنوات التي غطّت الأحداث الجسام التي عصفت بعد الحرب العالميّة الأولى بالمنطقة العربيّة عامّة، وببلاد الشام خاصّة.

أتقن عبد الله نظم الشعر النبطي دون منازع. وفي تقرير مطبوع وغير منشور، أطلق عليه المهندس خليل القنصل، نجل شاعر مادبا النبطي سالم النصل، لقب "عرار البدوي". وتمكّن عبد الله من تطويع موهبته لأهداف مختلفة، بعضها بيّن تمسّكه بأهداب الدين، مظهرًا ذلك في قصائد عدّة، منها ما ذكر ضمنها عيد ميلاد السيّد المسيح ممجّدًا إيّاه، ومنها ما أورد فيها مديحًا للسيدة مريم العذراء، وفي غيرها ذكر الموت وحتميّته. هذا؛ ولم يقتصر إيمانه على ممارسة الشعائر الدينيّة فحسب، بل إن حياته كانت مرهونة بإيمانه الفائق بقضاء الله وقدره، وتقبّله لمشيئته تعالى وتسامحه الشديد، حتى في أحلك الظروف. ولا يفوتني هنا ذِكر حادثة مقتل ابنه البكر الشاب بشارة العكشة في أسبوع عرسه. ففي إحدى الليالي التي كان فيها يحرس البيدر، مرّ شخص من عشيرة الذنيبات، وكان ذلك الشخص يترصّد رجلًا آخر ينوي قتله بسبب ثأر له عليه، وظنّ أن بشارة هو مطلوبه، فأرداه قتيلًا بطلقة من بارودته. ولدى أخذ العطوة العشائرية حسب أعراف ذلك الوقت، لم يطلب عبد الله ثأرًا وأبدى التسامح العربي الكريم، بل أنه خلال مراسم تقبّل العزاء، عمِد إلى توزيع الحلويات التي كانت قد أُحضِرت للاحتفال بعرس بشارة. وقد أيّد لنا السيد عبد الحميد الذنيبات شفاهيًّا هذه الواقعة، وقال أنه سمع من شيوخ عشيرته أن القاتل كان محمد عبد ربّه الذنيبات، وأن غريمه الفعلي كان من عشيرة المعايطة. وقد أصرّت عشيرة الذنيبات، اعترافًا بفضل عبد الله، على منحه حصان القاتل وقطعة أرض قرب منطقة الجدَيْدة على مشارف قرية أدر. وقد شاع، بحسب رواية السيد عبد الحميد، تسمية تلك الأرض بتلعة العكشة. وكان عبد الله كلّما وقع في ضيق يترحّم على ابنه المقدام ويهتف: "وينك عنّي يا بشارة".

ويُعدّ ردّه على صديقه الشاعر سالم القنصل، الذي أرسل له أبيات شعر لتعزيته بمقتل بشارة، دليلًا آخر على تقبّله مشيئته تعالى، فقد أجابه عبد الله بما يأتي:

الموت حقّ فرض واجب علينا
من خلقة الدنيا على الكل محتوم
الحمد لله على ما دزّ لينا
أمره مطاع ونشكره دايم الدوم
اغفر لنا يا ربّ ما جنينا
والْطُف لنا يا راحمًا كل مظلوم

وفي حادثة أخرى، توفّي له ابن صغير أثناء استضافته أصدقاء له على العشاء، فنبّه النساء في المنزل وحذّرهن من البكاء والعويل، إلى أن يغادر الضيوف، وذلك حرصًا منه على عدم إزعاجهم وإقلاق راحتهم.

هذا، وفضلًا عمّا عُرِف عنه من التقوى، إلّا أنه كان عنيدًا وصلبًا، وتحلّى باستقامة شديدة. كما أنه لم

يكن ليقبل الإهانة، ويمقت الظلم ولا يرضى بالضيم. ومن الوقائع التي كانت له اليد الطولى فيها، تحوُّل أفراد عشيرة العكشة والحجازين من الطائفة الأرثوذكسيّة إلى طائفة اللاتين. إذ كان عبد الله يتناوب هو والمعلّمة هدباء الصنّاع على قراءة الرسالة أثناء صلاة القداس أيام الأحد في الكنيسة. ولكن، في أحد الأيام حدث أن أخذ راعي الكنيسة الرئيس أفراميوس (وهو عم عودة القسوس) كتاب الإنجيل المقدس من يد عبد الله في يوم كان الدور له في قراءة الرسالة، وأعطاه لهدباء. حينها احتجّ عبد الله مباشرة لمعلّمه سلامة القسوس، الذي أعاد له الكتاب، وحدث شجار وتبادل اللكمات بين الرئيس والمعلّم داخل الكنيسة. أما عبد الله فقد تابع القراءة، على الرغم مما حدث. بالطبع، لم يقبل عبد الله الإهانة، وسارع في الذهاب إلى القدس للقاء بطريرك طائفة اللاتين، طالبًا منه إرسال كاهن إلى الكرك. ومنذ ذلك الوقت، تبعت عشيرتا العكشة والحجازين الطائفة اللاتينيّة. وقد أقام الكاهن الإيطالي الأب اسكندر في بيت العكشة، إلى أن تمّ بناء الطابق الأول من كنيسة اللاتين على قطعة أرض تبرّع بها العكشة، فانتقل عندها إلى المبنى الجديد.

كان عبد الله يمقت بشدة الظلم الواقع على أهالي الكرك في تلك الحقبة من الحكم العثماني للمنطقة، فكتب إلى المتصرّف محتجًّا، دون إبراز هويّته، ولكن الأخير أدرك من هو صاحب الرسالة، فنفاه إلى الطفيلة برفقة شاويش وجندي. وفي الطريق أُرغِم على النزول عن حصانه والسير راجلًا، واضطرّ إلى دفع مجيديّة ذهب لمرافقيه لكي يسمحا له بركوب الحصان ثانية. وعندما وصلوا إلى الطفيلة، بادر إلى الشكوى للمسؤولين وطلب إعادة المجيديّة له. وقد تمّ له ذلك، قائلًا للشاويش: "والله لو طلبت مني ليرة ذهب لأعطيتك بالرضى، ولكن لن أسمح لأي إنسان أن يبتزّني".

كما لاحظ أن السُّخرة، وهي ضريبة فرضها العثمانيّون على مالكي الحيوانات، تثقل كاهل المواطن، فكتب قصيدة يحرّض على رفضها، وألقاها في جمع من الشيوخ، وهذا نصّها:

الله من قلبٍ اطرمت بيه نيران
جوى ضلوعي زايد الها لهابا
عَ ديرةٍ ما هي مُلك ابن عثمان
ظلّت عزيزة بالشرف والمهابا
حريبها ديمه من المُرْ رويان
امعيف من طعن القنا والحْرابا
واليوم عُقب الطيلاسان خلقان
وعُقب المعزة نصير وقم الكلابا
ترى السخرة خلّت الناس نسوان
وغدت على بعض المخاليق نابا
عسكر كركنا شارب الشف فسقان
حنّا فريسة وهم صاروا ذيابا
راعي البغل متزبّنًا فيه عربان
عِدّه جلوي قاتل إلهْ قرابا
وراعي البهيم ينام الليل سهران
يمسي ويصبح في شديد العذابا
وشيوخنا صفّت عذارى بديوان
والكل منهم ساعيًا بالخرابا
حِنّا الغنم وانتوا على الكل رعيان
حسبي عليكم الله صرنا نهابا
شيخا بلا عزوة ترى ما له الشان
وعزوة بلا شيخ بليّا مهابا
وين أبو سليمان اللي على الخيل قحطان
صور العذارى يوم لجّت حرابا
لا يا قدر يا شوق مسلوب الابدان
يا شيخ لا ترضى علينا الخرابا
لانخا أخو شاه يوم روغات الارهان
ارفيفان فرّج همنا والعذابا
عزي لابن طه بركات وكوان
وحسين أخو حمدة ع الغير نابا
ساهر ويوسف ثُقل جوز عقبان
يحي وسالم ع المعادي ذيابا
لا عاد ما فيها سن مسنون وسنان
ما تقدروا تردّوا عنّا الجوابا

وبالفعل احتج أهالي الكرك إلى المسؤولين، فتمّ إعفاؤهم منها دون غيرهم، في حين أنها بقيت مفروضة على كافّة المناطق التي كانت ترزح تحت الحكم العثماني.

ولا يشكّ أحد في أنه كان من أوائل المحرّضين على قيام أهل الكرك بالهيّة؛ وهي ثورة قاموا بها برئاسة الشيخ قدر المجالي، وقد عمد العثمانيّون إلى إخمادها بكل قسوة وعنف. كما رحّب عبد الله بقيام الثورة العربيّة الكبرى بقيادة المغفور له الشريف الحسين بن علي شريف مكّة.

هذا، وقد كان العثمانيّون قد نفوه وأخاه خليل، مع عدد من أهل الكرك إلى منطقة أضنا في تركيّا (انظر إلى صور بعض رجال العكشة والحجازيين الذين نُفوا، **الشكل 1**)، حيث حلّوا بين الأرمن هناك، فساعدوهم في إيجاد أعمال تجاريّة تدفع عنهم العوز، كما سمحوا لهم بالصلاة في كنائسهم. وعندما خسر العثمانيّون الحرب العالمية الأولى، هرب هؤلاء المُنْفَوْن إلى الشام ومن بعدها إلى الكرك، حيث استقبلوا بعض أفراد من العائلات الأرمنيّة التي لجأت إلى بلاد الشام هربًا من المذابح التي تعرّضوا لها على يد العثمانيّين.

وفي منفاه، كتب عبد الله قصائد عبّر فيها عن حنينه للكرك، ورثى الشيخ قدر المجالي الذي قُتل بسمّ دسّه العثمانيّون له في الطعام، عندما كان سجينًا في دمشق، عقابًا له على قيادة الهيّة. وقد لجؤوا إلى التخلّص منه بهذه الطريقة تجنّبًا لإثارة الإضطرابات في حال إعدامه، علمًا بأنهم أعدموا غيره.

كان عبد الله طموحًا طالبًا للعلم، وقد عُرف عن أفراد عشيرة العكشة وأفخاذها أنهم رحلوا من قراهم المتاخمة لوادي موسى قرب مدينة البترا الأثريّة إلى الكرك، وذلك تحت وطأة الغارات الوهابيّة التي كانت تحدث آنذاك. وقد حدث أن اصطحب دليل سياحيّ فلسطينيّ مجموعة من السيّاح الفرنسيّين إلى البترا، مارًّا بهم في مدينة الكرك. وعندما رأى عبد الله أن الدليل يتحدّث اللغة الفرنسيّة دبّت في صدره الغيرة، فطلب من كاهن الرعيّة اللاتيني أن يعلّمه الفرنسيّة والإيطاليّة والإنجليزيّة، وبعدها عمل كدليل سياحيّ يأخذ الزائرين إلى مدينة البترا. فكان حقًّا أوّل دليل سياحيّ أردنيّ. وقد كتب قصيدة عند أول زيارة له إلى وادي موسى، وممّا قاله فيها ما يأتي:

أنا ذلوان بديرة الجد ولهان
لمسكنه طربان أبغيه لنا اوطان
ديرة جدودي مرتوي بالعدودي
الله يجودي لخرايبه بعمران
مُلكًا ذكرته في ضميري شكرته
يوم ان نظرته نوّر القلب فرحان
أنا اللي جيته باقدامي وطأته
عقلي نسيته باهضاب ووديان
ديرة اجدادي بوادي موسى وكادي
ما بين واد وخندقًا صار له شان

ولم يكتفِ عبد الله بهذا القدر من العلم، بل أنه عمد إلى دراسة القانون مع صديقه عودة القسوس، فكانا يدرسان معًا وهما يتنزّهان في شوارع الكرك وفي الطريق السلطاني (طريق عمان الكرك الحاليّة)، إلى أن تمكّنا من العمل في السلك القضائي، وقد تمّ اختيارهما من ضمن أعضاء حكومة مؤاب الوطنيّة، والتي جاءت لتسدّ الفراغ بعد زوال الحكم العثماني (القسوس الهلسا والشوارب 2006). وفي تلك الفترة عُيّن قاضيًا في مدينة إربد.

كان عبدالله من أشد المعارضين للحكم العثماني، فلم يسكت عن الظلم الذي حاق بالمنطقة نتيجة لاتفاقية سايكس بيكو، والتي أدّت إلى احتلال فرنسا سوريا ولبنان بعد انتزاعها من المغفور له الملك فيصل بن الحسين. ونتيجة لهذا الاحتلال فقد هبّ أهل المنطقة لمحاربتهم، وكان سلطان باشا الأطرش أحد قادة هذه الثورة.

في عام 1919، عيّن رئيس المجلس الفرنسي جورج كليمنصو الجنرال هنري غورو (1867–1945) قنصلًا حاكمًا لسوريا، وكلّفه بتحديد مصير البلد. وفي 1921/6/23، جرت من قِبل الثائر أحمد مريود محاولة لاغتيال الجنرال الذي كان بصحبة الشيعي اللبناني أدهم خنجر. وأحمد مريود من عائلة المهداوي التي حكمت منطقة البلقاء في الأردن لحوالي خمسمائة عام. وبسبب بطش العثمانيّين، لجأت هذه العائلة إلى قرية جباتا الخشب في القنيطرة من هضبة الجولان السوريّة.

إلّا أن محاولة الاغتيال هذه فشلت، فنجا الجنرال وقُتل الضابط برانت الذي كان مرافقًا له، وهرب أحمد مريود إلى شرق الأردن. وبناءً على طلب من السلطات الفرنسيّة، اعتقلت السلطات البريطانية أحمد وسلّمته للمحكمة في مدينة إربد، فكان أن قُدّم الثائر للمحاكمة أمام القاضي عبد الله العكشة، الذي أخذ مكان رئيس المحكمة الغائب حينذاك، وقد يكون غيابه عن عمد تجنّبًا لإحراجه من قبل الإنجليز الذين طلبوا أن يُحكم على أحمد بالموت، أو تسليمه للفرنسيّين.

عندما اطّلع عبد الله على حيثيّات القضيّة، رفض الانصياع لرغبة الإنجليز، لقناعته بأن أحمد رجل شريف وثورته ضد المستعمر حق مشروع، ويجب أن لا يعامل كمجرم عادي. وبناء على ذلك أطلق سراحه. بعدها، توقّع عبد الله مباشرة أن يُعزل من وظيفته، فكتب إلى أهله في الكرك طالبًا منهم أن يُعدّوا مكان إقامة له، إذ قرّر العودة لممارسة مهنة

المحاماة. وقد رضخ الإنجليز لقرار عبد الله خوفًا من إثارة القلاقل، إذ أن أحمد مريود كان يقود ثلاثمائة وخمسين خيّالًا وألفين من المشاة المسلّحين. بعدها عاد إلى سوريا ليواصل نضاله، إلّا أن الفرنسيّين علموا بلجوئه إلى جباتا الخشب في الجولان، فقصفوا مكان تواجده بالطائرات، مما أدى إلى استشهاده. وكان ذلك عام 1926.

هذا، وكان عبد الله قد اخْتير عضوًا في اللجنة التي شُكّلَت في بدايات تأسيس إمارة شرق الأردن، لوضع قانون للمجلس النيابي. وحدث أن اختلف مع المرحوم إبراهيم هاشم حول تعريف من هو الأردني. وثار بينهما جدل دام طويلًا، فحُلّت اللجنة.

حاول عبد الله الترشّح للمجلس التشريعي عن المقعد المسيحي لمنطقة الكرك ثلاث مرّات. وفي المرة الأخيرة، كان المرحوم متري الزريقات منافسًا له. وعند فرز النتيجة، تساوى عدد أصوات المتنافسين. وكان المرحوم صدقي القاسم قائد منطقة الكرك ورئيس هيئة الانتخاب، ولدى استشارة المسئولين في عمان، اقترحوا عليه عمل قرعة بمعرفته. كتب صدقي اسم متري على ورقتين وطواهما. وبالطّبع، فإنه بعد سحبه إحدى الورقتين، أعلن فوز متري وبارك له، ثم مزّق الورقتين وألقاهما. إلّا أن المرحوم الياس النصراوين؛ وهو ابن عمّة عبد الله؛ التقط الأوراق وسلّمها إلى عبد الله، الذي أخذها وذهب بها إلى عمان محتجًّا لدى إبراهيم هاشم. عندها بلّغه إبراهيم قائلًا: "بصراحة أنت غير مرغوب فيك". بعدها قرّر عدم المشاركة في أي انتخابات أخرى، وعمل في مهنة المحاماة، وكان يمارسها بكلّ نزاهة ويرفض التوكّل في القضايا التي يشتمُّ فيها غشًّا أو تلاعبًا.

لم يؤثّر ما جرى له على وطنيّته في أي يوم من الأيام، وكان يعبّر دائمًا بقصائد ينظمها في مناسبات وطنيّة عدّة. فكتب قصيدتين أظهرتا امتعاضه مما يُحاك ضدّ فلسطين من مؤامرات، إحداهما عام 1929 والأخرى عام 1930، ذامًّا تقاعس الحكّام العرب عن نصرة فلسطين وأهلها. وعندما قدِم جلال بايار إلى عمان لبحث موضوع حلف بغداد، نزل الأردنيّون إلى الشارع في مظاهرات تعبيرًا عن رفضهم لانضمام الأردن إلى الحلف، فكتب عبد الله الأبيات الآتية:

إنت السلف ونحن الخلف
ويش جايبك لينا يا بايار
يا بن عثمان كأنك فسقان
لا ترمينا بشعلة نار
هذه بلادنا مُلك اجدادنا
نحميها بضرب البتّار
هذا الزمان مثل الميزان
طايح طالع يا ستّار
قوطر عنّا لا تزعّلنا
اصح عَ دارك تنهار
أنا بحالي وانت بحالك
كلْ منّا يسوي له مزمار
من شار بالشر ما له مفر
لو مسكنه جوى غار

عام 1956، رحل شيخنا الجليل عبد الله سالم العكشة إلى الرفيق الأعلى، تاركًا إرثًا من العبر والدروس غنيًا بالقيم الوطنيّة والأخلاقيّة والاجتماعية، حبّذا لو اطّلع عليها أبناء الجيل الجديد، ليس من باب التكريم لذكراه فحسب، بل ليقتدوا به.

3. الشيخ المجاهد قدر المجالي.

4. ابن الشيخ عبد الله سالم العكشة،الدكتور فريد العكشة حاملًا جلالة الملك عبدالله الثاني يوم ميلاده.

المراجع:

العكشة، فريد 2003. **"عرس البويضة"** - مجموعة قصائد نبطيّة للمحامي عبد الله العكشة، الطبعة الأولى، عمان، 2003.

القسوس الهلسا و الشوارب، نايف جورج و غسان سلامة.2006. **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا (1875 – 1943م)**، طُبعت من قِبل ديوان عشيرة الهلسا، عمان، 2006.

القسوس الهلسا، يوسف سليمان.2016. **مذكرات يوسف سليمان القسوس الهلسا (1896–1982)**، عمان.

الدعجة ، طارق كساب. 2010. **مختارات أردنية من الشعر النبطي ورواده في الأردن**، أمانة عمان الكبرى، مديرية الثقافة، الطبعة الأولى، : ص 105.

القنصل، خليل سالم ، **تقرير غير منشور** – مراسلة خاصة.

زهر الدين، صالح.2001. **موسوعة رجالات من بلاد العرب**، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، طبعة أولى، ص: 60، 69.

الزركلي، خير الدين.1980. **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة خامسة،، الجزء الأول: ص 262.

مريود، أحمد..1997 – **قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن**، محمود عبيدات، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، طبعة أولى، 1997م.

الموقع الإلكتروني: https: //openlibrary.org/books/L11998328M/Ahmad_Muray-wid_1886-1926